

قداسة الله  
المحاضرة ٤: جُنُونُ لُوْتَرِ  
أ.ر. سي. سنبرول

أودُّ أن أبدأ هذه المحاضرة بسؤالٍ من تاريخ الكنيسة. قولوا لي مَنْ هُوَ اللاهوتيُّ الشهيرُ الَّذِي وَصَفَهُ شخصٌ معاصرٌ له وأعلى سلطةً منه ذات مرةٍ بِالْخِنْزِيرِ الْبَرِّيِّ؟ ربّما قفزَ الاسمُ الآنَ إلى ذِهْنِكُمْ. أتحدّثُ بالتأكيدِ عن مارتِنِ لُوْتَرِ؛ وَمَنْ وَصَفَهُ بِالْخِنْزِيرِ الْبَرِّيِّ هُوَ البابا لِيُو.

ففي المرسومِ البابويِّ الَّذِي عُرِلَ فيه لُوْتَرُ، واسمُهُ "أكسورجي دوميئا"، المأخوذُ مِنَ الكَلِمَاتِ الافتتاحيةِ لهذا البيانِ البابويِّ الَّذِي أُرْسِلَ مِنَ الفاتيكان، وكانتِ الكَلِمَاتُ الافتتاحيةُ تعني: "قُمْ يَا رَبُّ. دافعِ عَن قَضِيَّتِكَ، لِأَنَّهُ"، كما تابعَ البابا، "يُوجَدُ خِنْزِيرٌ بَرِّيٌّ حُرٌّ طَلِيْقٌ فِي كَرْمِكَ".

وَبِحَسَبِ الرِّوَايَةِ، كَانَ لَدَى البابا لِيُو أُمُورٌ أُخْرَى لِيَقُولَهَا عَن لُوْتَرِ بَعْدَ أَنْ نَشَرَ أُطْرُوحَتَهُ ذَاتَ الحَمْسِ والتِّسْعِينَ بِنْدًا، وَالتِّي أَثَارَتِ ضَجَّةً كَبِيرَةً فِي أَنحاءِ أَلْمَانِيَا، وانتشرَ الجَدَلُ عَبرَ أوروپَا، حَتَّى وَصَلَ إِلَى الفاتيكانِ فِي رُوْمَا. وَحِينَ عَلِمَ لِيُو بِهَذَا، قَالَ: "هَذَا أَلْمَانِيٌّ سَكِيْرٌ. وَسَيُعَيِّرُ رَأْيَهُ حِينَ يَفِيْقُ".

أقولُ هذا كَيْ أَنْبَهَكُمُ إِلَى أَنَّهُ فِي القَرْنِ السَّادِسِ عَشْرَ، كَانَ مِنَ المَعْبُولِ فِي النِّزَاعِ اللاهوتيِّ مُناقِشَةُ المَسَائِلِ لَيْسَ فِي صُورَةِ جِوَارٍ أُنْبِقِ وَمُهَذَّبِ، بَلْ فِي صُورَةِ لاذِعَةٍ مِنَ الجِدَالِ العِدَائِيِّ. فَإِنْ قَرَأْتُمْ كِتَابَاتِ القَرْنِ السَّادِسِ عَشْرَ، لِكَلَا طَرَفِي الجِدَالِ، سَيَبْدُو لَكُمْ أَنَّ هَؤُلَاءِ كَانُوا شَرِسِينَ فِي هُجُومِهِمْ عَلَى بَعْضِهِمُ البَعْضِ. لَكِنْ حَتَّى وَسَطَ زِحَامِ الجِدَالِ الشَّرِسِ هَذَا، كَانَ مارتِنِ لُوْتَرِ مُتَقَرِّدًا. فَقَدْ كَانَ عَصِيْبًا، وَمُتَحَدِّقًا، وَقَطًّا جَدًّا فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ، حَتَّى أَنَّ البَعْضَ افْتَرَضُوا أَنَّهُ يُعَانِي مِنَ مُشْكَلَةٍ عَقْلِيَّةٍ.

### مُخْتَل؟

هذا ما أريدُ التَّحدُّثَ عَنْهُ فِي هذه المُحَاظَرَةِ: أَنَّ الحُكْمَ مِنَ مَنْظُورِ التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ لِقَرْنِ العِشْرِينَ هُوَ أَنَّ مارتِنِ لُوْتَرِ كَانَ حَقًّا مُخْتَلًا عَقْلِيًّا. وَإِنْ كُنْتَ بروتِستانتِيًّا، وَكَانَ هَذَا الحُكْمُ صَحِيْحًا، فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ جِذُورَ قناعاتِكَ الدِّينِيَّةِ ربّما تَعُودُ إِلَى قناعاتِ رَجُلٍ مُخْتَلٍ.

مِنَ المُذْهَلِ أَنْ نَرَى كَيْفَ يَظُنُّ المُوَرِّخُونَ أَنَّهُمْ يَسْتَطِيعُونَ العُودَةَ إِلَى المَاضِي لِقَاصِ أَمْرٍ مَا مِنَ مَنْظُورِ أَلْفِي عامٍ بَعْدَهُ. لَا حُدُودَ لِتِغَاوُلِ بَعْضِ المُحَلِّلِينَ النَّفْسِيِّينَ الَّذِيْنَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يَسْتَطِيعُونَ العُودَةَ إِلَى صَفْحَاتِ التَّارِيخِ،

وَأَنَّهُمْ قَادِرُونَ مِنْ مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ عَلَى تَشْخِصِ الْحَالَةِ النَّفْسِيَّةِ لِشَخْصٍ عَاشَ مِنْذُ أَرْبَعِمِائَةٍ أَوْ خَمْسِمِائَةٍ عَامٍ. وَهَنَّاكَ مَنْ تَوَصَّلُوا بِالْفِعْلِ إِلَى الْاسْتِنْتَاكِ بِأَنَّ مَارْتِينَ لُوَثْرَ كَانَ مَجْنُونًا — أَيْ مُخْتَلًا.

لَكِنْ أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَ: لِمَاذَا؟ مَاذَا يَرَى النَّاسُ فِي لُوَثْرَ يَدْفَعُهُمْ إِلَى الْإِعْتِقَادِ بِأَنَّهُ مُخْتَلٌ؟

تَحَدَّثْتُ بِالْفِعْلِ عَنِ الْعَصَبِيَّةِ الْاسْتِنْتَائِيَّةِ لِلُوَثْرَ. فَحِينَ تَقْرَأُونَ، عَلَى سَبِيلِ الْمَثَلِ، كِتَابَهُ الشَّهِيرَ عُبودِيَّةُ الْإِرَادَةِ، الَّذِي كَانَ رَدًّا عَلَى الْعَالَمِ الْمُحَنِّكَ فِي الْمَذْهَبِ الْإِنْسَانِي، إِيرَارْمُوسَ مِنْ رُونِدَامَ، الَّذِي كَتَبَ مَقَالًا ضِدَّ لُوَثْرَ بِعُنْوَانِ "The Diatribe".

فَحِينَ رَدَّ لُوَثْرَ عَلَى إِيرَارْمُوسَ، قَالَ أَشْيَاءَ مِنْ قَبِيلِ: "يَا إِيرَارْمُوسَ، أَيُّهَا الْأَحْمَقُ، وَالْأَبْلَهُ الْعَبِيُّ". وَأَيْضًا: "لَمَاذَا قَدْ أَصْبَحَ وَقْتِي فِي الْاسْتِمَاعِ إِلَى حُجَجِكَ الْوَاهِيَةِ؟" وَأَضَافَ: "نَعَمْ أَنْتَ فَصِيحٌ. وَقَلَمُكَ عَظِيمٌ. لَكِنَّ قِرَاءَتِي لَمَا تَكْتُبُهُ تُشْبِهُ مُشَاهَدَةَ شَخْصٍ يَسِيرُ فِي الشَّارِعِ حَامِلًا سَبَائِكَ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ مُمْتَلِئًا بِالرُّوثِ". هَكَذَا كَانَ لُوَثْرَ يَدْخُلُ فِي جِدَالٍ لَاهُوتِيٍّ. لَنْ أُتْرَجِمَ تِلْكَ الْكَلِمَاتِ إِلَى لُغَتِنَا الْعَامِيَّةِ، لَكِنْ أَظُنُّ أَنَّكُمْ فَهَمْتُمْ الْفِكْرَةَ.

"أَحْيَانًا أَبْغَضُ اللَّهَ":

لَمْ يَكُنْ لُوَثْرَ عَصَبِيًّا فِي حَدِيثِهِ فَحَسَبَ، لَكِنْ مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّهُ كَانَ عُصَابِيًّا، وَخَاصَّةً بِشَأْنِ صِحَّتِهِ. فَقَدْ كَانَ مُصَابًا بِوَسْوَاسِ الْمَرَضِ. وَعَانَى مِنْ قَلْقِ عَصَبِيٍّ وَمَعْدَةِ عَصَبِيَّةٍ طَوَالَ حَيَاتِهِ، وَيُمْكِنُنِي أَنْ أَشْعُرَ بِهِ. كَمَا عَانَى مِنْ حَصَاوٍ بِالْكُلَى. وَأَشْعُرُ بِهِ فِي هَذَا أَيْضًا. وَقَدْ تَوَقَّعَ مَوْتَهُ سِتًّا أَوْ سَبْعَ مَرَّاتٍ. فَكَلَّمَا كَانَ لُوَثْرَ يُعَانِي مِنْ أَلَمٍ بِالْمَعْدَةِ، كَانَ يَتَيَقَّنُ مِنْ أَنَّهُ مَرَضٌ قَاتِلٌ، وَكَانَ شَدِيدَ الْقَلْقِ دَائِمًا، مُعْتَقِدًا أَنَّ حَاصِدَ الْأَرْوَاحِ عَلَى وَشَكِّ الْقَفْرِ فَوْقَهُ وَإِدَانَتِهِ.

وَكَانَتْ أَنْوَاعُ رُهَايِهِ كَثِيرَةً وَخُرَافِيَّةً. فَقَدْ كَانَ لَدَيْهِ خَوْفٌ شَدِيدٌ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ، حَتَّى أَنَّهُ فِي بَدَايَةِ خِدْمَتِهِ، سَأَلَهُ أَحَدُهُمْ: "أَيُّهَا الْأَخُ مَارْتِينَ، أَتَحِبُّ اللَّهَ؟" أَتَعْلَمُونَ بِمِ أَجَابَ؟ قَالَ: "أَحِبُّ اللَّهَ؟ أَتَسْأَلُنِي إِنْ كُنْتُ أَحِبُّ اللَّهَ؟ أَجِبُّ اللَّهَ؟ أَحْيَانًا أَبْغَضُهُ. فَإِنِّي أَرَى الْمَسِيحَ دَيَانًا آكِلًا لَا يَنْظُرُ إِلَيَّ إِلَّا لِتَقْيِيمِي وَإِصَابَتِي بِالْبَلَايَا". تَخَيَّلُوا مَعِي شَابًا يَسْتَعِدُّ لِلْخِدْمَةِ، يُصْرِحُ بِأَنَّهُ يَمُرُّ بِفتراتٍ مِنَ الْبُغْضَةِ لِلَّهِ، وَهَذِهِ الْبُغْضَةُ مُتَّصِلَةٌ بِشِدَّةٍ بِالْخَوْفِ الْمُصِيبِ بِالشَّلَلِ، الَّذِي صَرَخَ لُوَثْرَ بِأَنَّهُ يَشْعُرُ بِهِ نَجَاهَ اللَّهِ.

## مُواجهَةٌ عَنْ قُرْبٍ مَعَ صَاعِقَةٍ بَرْقٍ:

نَعْلَمُ أَنَّ وَالِدَ لوثِرٍ كَانَ لَدَيْهِ خُطْطٌ لَهُ كَشَابٍ أَنْ يَكُونَ مُحَامِيًا بَارِزًا، وَقَدْ اَدَّخَرَ هَانِزَ لوثِرِ الشَّيْخِ، الَّذِي كَانَ عَامِلًا بِمَنْجَمِ فَحْمٍ بِالْمَانِيَا، النُّقُودَ حَتَّى يُمَكِّنَ لَابْنِهِ دَخُولَ أَفْضَلِ كَلِّيَّاتِ الْحَقُوقِ فِي الْمُنْطَقَةِ، وَحِينَ صَارَ لوثِرٌ طَالِبًا بِالْحَقُوقِ، تَقَوَّى بِسُرْعَةٍ شَدِيدَةٍ كَوَاحِدٍ مِنْ أَلْمَعِ الْعُقُولِ الشَّابَّةِ فِي مَجَالِ التَّشْرِيعِ فِي كُلِّ أَوْرُوبًا.

لَكِنْ فِي وَسْطِ كُلِّ هَذَا، كَانَ عَائِدًا يَوْمًا مَا إِلَى بَيْتِهِ، رَاكِبًا جَوَادَهُ، وَفَجْأَةً هَبَّتْ عَاصِفَةٌ دُونَ سَابِقِ إِنْذَارٍ. وَوَجَدَ لوثِرٌ نَفْسَهُ مُحَاصِرًا فِي الطَّرِيقِ فِي وَسْطِ عَاصِفَةٍ رَعْدِيَّةٍ عَنِيفَةٍ. كَانَ الْبَرْقُ يَوْمِضُ، وَالرَّعْدُ يُدَوِّي، وَفَجْأَةً جَاءَتْ صَاعِقَةٌ بَرْقٍ وَهَبَتْ عَلَى مَقْرَبَةٍ شَدِيدَةٍ مِنْ جَوَادِهِ، حَتَّى أَنَّ لوثِرَ سَقَطَ مِنْ فَوْقِ الْجَوَادِ عَلَى الْأَرْضِ، وَظَلَّ يَتَحَسَّسُ جَسَدَهُ لِيَتَأَكَّدَ إِنْ كَانَ لَا يِزَالُ حَيًّا.

وَهُنَاكَ، وَفِي وَسْطِ هَذَا الْإِفْلَاتِ بِأَعْجُوبَةٍ مِنَ الْمَوْتِ، صَرَخَ: "يَا قَدِيسَةَ أَنْ، سَاعِدِينِي! وَسَأُصِيحُ رَاهِبًا". وَاعْتَبَرَ هَذِهِ الْمُنَاوَشَةَ مَعَ الْمَوْتِ تَنْبُؤًا إِلَهِيًّا عَلَى حَيَاتِهِ وَدَعْوَةً إِلَى الْخِدْمَةِ. وَهَكَذَا - وَأَمَامَ اسْتِيَاءِ أَبِيهِ الشَّدِيدِ - تَرَكَ كَلِّيَّةَ الْحَقُوقِ، وَانْضَمَّ إِلَى الدَّيْرِ، وَبَدَأَ فِي التَّدْرِبِ لِيَصِيرَ قَسًّا. لَا يُبْذِي كَثِيرُونَ رَدًّا فِعْلًا كَهَذَا تُجَاهَ مُوَجَّهَةٍ عَنْ قُرْبٍ مَعَ صَاعِقَةٍ بَرْقٍ.

أَتَذَكَّرُ مِنْذُ بَعْضَةِ سِنَوَاتٍ فِي بَطُولَةِ الْجُولْفِ، خَارِجَ شِيكَاغُو، أُصِيبَ ثَلَاثَةُ أَعْضَاءِ بَارِزُونَ مِنْ مُؤَسَّسَةِ الْجُولْفِ لِلْمُخْتَرَفِينَ بِفِعْلِ صَاعِقَةٍ بَرْقٍ قَرِيبَةٍ، وَمِنْهُمْ لِي تْرِيفِينُو. وَقَدْ نَجَّوْنَا مِنْ هَذِهِ التَّجْرِبَةِ الصَّعْبَةِ، وَبَعْدَ ذَلِكَ بِفِتْرَةٍ قَصِيرَةٍ ظَهَرَ تْرِيفِينُو فِي بَرْنَامِجِ حَوَارِيٍّ - يُعْرَضُ فِي الْمَسَاءِ - وَسَأَلَهُ الْمُدِيحُ: "سَيِّدُ تْرِيفِينُو، مَاذَا تَعَلَّمْتَ مِنْ تَجْرِبَةِ الْإِقْتِرَابِ مِنَ الْمَوْتِ بِصَاعِقَةٍ بَرْقٍ؟" فَابْتَسَمَ تْرِيفِينُو، وَأَجَابَ: "تَعَلَّمْتُ أَنَّهُ حِينَ يَرْغَبُ الْقَدِيرُ فِي اللَّعْبِ، فَالْأَفْضَلُ أَنْ تَبْتَعِدَ عَنْ طَرِيقِهِ". ثُمَّ تَابَعَ تْرِيفِينُو سَاخِرًا: "تَعَلَّمْتُ أَيضًا أَنْ أَتَّخِذَ احتِطَاتِي كُلَّمَا دَخَلْتُ فِي عَاصِفَةٍ بَرْقِيَّةٍ". فَقَالَ لَهُ الْمُدِيحُ: "حَسَنًا، مَاذَا سَتَفْعَلُ؟" قَالَ: "إِنْ رَأَيْتُ بَرْقًا، سَأُخْرِجُ مَضْرَبَ الْجُولْفِ الْحَدِيدِيِّ فِي الْحَالِ، وَأَسِيرُ فِي الْمَلْعَبِ مُلَوِّحًا بِهِ فِي الْهَوَاءِ". فَسَأَلَهُ: "وَلِمَاذَا قَدْ تَلَوَّحَ بِعَصَا مَعْدَنِيَّةٍ فِي الْهَوَاءِ؟ سَتَكُونُ كَمَمْنَصِّ الصَّوَاعِقِ". أَجَابَ: "لَا، لَا يَقْدِرُ اللَّهُ نَفْسَهُ أَنْ يُصِيبَ مَضْرَبَ الْجُولْفِ".

اسْتَجَابَ تْرِيفِينُو لِمَنَاوَشَتِهِ الْقَرِيبَةِ مَعَ الْمَوْتِ بِصَاعِقَةٍ بَرْقٍ بِالْمُزَاحِ وَالنَّهْكَمِ، بَيْنَمَا دُفِعَ لوثِرٌ لِتَغْيِيرِ حَيَاتِهِ بِأَكْمَلِهَا، وَدَخُولِ الدَّيْرِ، وَالتَّخَلِّيِ عَنْ مِهْنَتِهِ - لَا بِدَافِعِ مَحَبَّةِ اللَّهِ، بَلْ بِسَبَبِ هَوَسٍ رُهَابِيٍّ بِغَضَبِ اللَّهِ.

## شُعورٌ بَعْدَ الجَدَارَةِ:

حَلَّ أخيراً يومُ رَسامَةِ لوثر، وإقامَتِهِ مراسِمِ أوَّلِ قُدَّاسٍ؛ وأخيراً، قَبْلَ والدِهِ وعائِلَتِهِ قرارَ ابْنِهِمُ المُنْهَوِّرِ؛ وقرَّرَ هانز لوثر حُضُورَ مراسِمِ القُدَّاسِ الأوَّلِ الَّذِي كانَ ابْنُهُ سيقِيهِمُها. تَعْلَمُونَ أَنَّ لوثرَ تَفَوَّقَ في دِراسَتِهِ كعالمٍ بارزٍ ومُتَحَدِّثٍ بارِعٍ. وهكذا كانَ النَّاسُ يَنْتَظِرُونَ بِلَهْفَةٍ أداءَهُ للقُدَّاسِ الأوَّلِ.

أرجو أن تفهموا هذا: في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، في طُقُسِ القُدَّاسِ، كانَ الاعتقادُ هُوَ أَنَّهُ في وَسَطِ الطُقُسِ، تحدثُ مُعْجَزَةٌ إلهيَّةٌ فوريَّةٌ، حيثُ في أثناءِ صلاةِ التَّقْدِيسِ، التي لا يتلوها سوى شَخْصٍ اجتازَ بَعْضَ الطُقُوسِ المُقَدَّسَةِ، وتمَّتْ رَسامَتُهُ كاهنًا، تحدثُ المُعْجَزَةُ - التي تُسَمَّى "الاستِحالة"، إذ على الرِّغمِ مِنْ بقاءِ مظهرِ الخُبْزِ والخَمْرِ كما هُوَ، وِعَدَمِ ملاحظَةِ تَغْيِيرِ في العنَاصِرِ، كانتِ روما تعتقدُ أَنَّ تَغْيِيرًا جوهريًّا وأساسِيًّا يحدثُ في هذه العنَاصِرِ يُسَمُّونَهُ الاستِحالةَ. أي كانتِ مادَّةُ الخُبْزِ والخَمْرِ تتغيَّرُ إلى مادَّةِ جَسَدِ وِدَمِ المَسِيحِ بينَما المَظْهَرُ - أي السِّماتُ الخارِجِيَّةُ للخُبْزِ والخَمْرِ - تظلُّ كما هي.

هذه هي المُعْجَزَةُ، وقدَ أعدَّ نَفْسَهُ في أثناءِ تَدْرِيبِهِ لِهَذِهِ اللَّحْظَةِ، حينَ يُصَلِّي على العنَاصِرِ، فيحْدُثُ السِّرُّ الإلهيُّ، إذُ بَعْدَ التَّقْدِيسِ، وبينَ يَدَيِ ابنِ عامِلِ المَنجَمِ، لَنْ يُوجَدَ خُبْزٌ أو خَمْرٌ، أو العنَاصِرُ المَعْرُوفَةُ، بَلْ شَيْءٌ لا يَقِلُّ عَنِ الجَسَدِ والِدَمِ المُقَدَّسَيْنِ لِيَسُوعَ المَسِيحِ.

وهكذا، حانتِ في القُدَّاسِ لَحْظَةُ تلاوَةِ الصَّلَاةِ، وانتَظَرَ الجَمِيعُ أنْ يَنطُوقَ لوثرُ بِكَلِماتِ التَّقْدِيسِ. وحينَ وَصَلَ إلى هَذِهِ المَرِحلَةِ، واقْتَرَبَ هذا الشَّخْصُ المُتَعَجِّرفُ، وألْبَارِغُ في التَّحَدُّثِ علَنًا، مِنْ تِلْكَ اللَّحْظَةِ، تَسَمَّرَ فَجأةً، وابتدأَ يَرْتَجِفُ، وتحرَّكَتْ شَفَتاهُ، لَكِنْ لَمْ تَخْرُجْ مِنْهُمَا كَلِماتٌ. وَبِداً وَكأنَّ الجالِسينَ في الكَنِيسَةِ يحاولونَ سَحَبَ الكَلِماتِ مِنْ فَمِهِ، وأخفى أبوهُ وَجْهَهُ خَجلاً مِنْ فَشَلِ ابْنِهِ في تَخْطِي الطُقُسِ البَسِيطِ للقُدَّاسِ، الَّذِي حَفِظَهُ عَنِ ظَهْرِ قَلْبِ آلافِ المَرَّاتِ.

ظَنَّ الجَمِيعُ فقطً أَنَّهُ نَسِيَ الكَلِماتِ. لَكِنَّهُ لَمْ يَنسَها. فَقدَ تَمَّتْ بِها في النِّهايةِ وَأَنهى القُدَّاسَ سَريِعًا، ثُمَّ تركَ المَذْبَحَ في حَرَجٍ شَدِيدٍ.

لَكِنَّهُ لاحقًا أَوْصَحَ أَنَّ هذه لَمْ تَكُنْ عَفْوَةً عَقْلِيَّةً، بَلْ أَنَّهُ بدأَ يَفقِرُ كَيْفَ لِهَذَا الإنسانِ الخاطِئِ أنْ يَتَجَرَّأَ وَيُقَدِّمَ على أنْ يُمَسِكَ بِيَدَيْهِ القَدْرَتَيْنِ جَسَدَ المَسِيحِ وَدَمَهُ الثَّمِينَيْنِ. فَقدَ ابتلَعَ لوثرُ داخِلَ شُعُورِهِ بَعْدَمَ جَدَارَتِهِ حَتَّى أَنَّهُ تَسَمَّرَ.

## رجُلٌ عَجِيبٌ:

هناك قِصَصٌ أُخْرَى عن لوثر تُبَيِّنُ غَرَابَةَ سُلُوكِهِ. نَتَذَكَّرُ أَنَّهُ بَعْدَ انْطِلاقِ حَرَكَةِ الإِصْلاحِ، حَدَثَ نِزاعٌ بَيْنَ الكالْفِينِيِّينَ وَاللُّوثِرِيِّينَ بِشَأْنِ طَقْسِ عِشاءِ الرَّبِّ، وَبَدَلَتْ كُلُّ الجُهُودِ لِلتَّوَصُّلِ إِلَى اتِّفَاقٍ بَيْنَ قُوَّتَيْنِ أَسَاسِيَّتَيْنِ فِي البُرُوتِسْتَانِيَّةِ. فَالْتَقَوْا مَعًا فِي جَلْسَةِ هَامَّةٍ، لِمُنَاقَشَةِ خِلافَاتِهِمْ.

أَصَرَ لوثرٌ على الحُلُولِ الجَسَدِيِّ لِجَسَدِ المَسِيحِ فِي طَقْسِ عِشاءِ الرَّبِّ، وَأَخَذَ يُلوِّحُ بِعَبْصَتِهِ، وَيَفْرَعُ عَلَى المِنْصَدَةِ كَثِيرًا، قَائِلًا: "*Hoc est corpus meum. Hoc est corpus meum*". كما خَلَعَ نِيكِيْتَا خُرُوتْشُوفِ حِذاءَهُ فِي الأُمَمِ المُتَّحِدَةِ مُنْذُ بَضْعَةِ عُقُودٍ، وَبَدَأَ يَفْرَعُ عَلَى الطَّاولَةِ لِيَلْفِتَ الانْتِباةَ. لَمْ يَتَنَاقَشْ لوثرٌ، بَلْ ظَلَّ يُكْرِرُ كَثِيرًا: "هَذَا هُوَ جَسَدِي".

كَانَ رَجُلًا عَجِيبًا.

## تَحَدِي كُلِّ سُلْطَةٍ فِي هَذَا العَالَمِ:

ويَقَالُ إِنَّ أَكْثَرَ شَيْءٍ قَدْ يُثَبِّتُ جُنُونَهُ هُوَ نَقِيذُهُ الظَّاهِرِيُّ بِجُنُونِ العَظَمَةِ. فَكَيْفَ نَفَسِرُ اسْتِعْدَادَ شَخْصٍ لِتَحَدِي كُلِّ سُلْطَةٍ فِي هَذَا العَالَمِ، وَالوُقُوفِ ككاهِنِ شَابٍ بِمُفْرَدِهِ تَمَامًا ضِدَّ جَمِيعِ سُلْطَاتِ الكَنِيسَةِ، وَضِدَّ البَابَا، وَمَسْتَشَارِي الكَنِيسَةِ، وَأَفْضَلِ عُلَمَاءِ اللّاهُوتِ عَلَى الأَرْضِ؟ فَقَدْ مَرَّ بِالفِعْلِ بِكُلِّ هَذِهِ النِّقَاشَاتِ فِي لِيْبِرْجِج. فَقَدْ تَجَادَلَ مَعَ مَارْتِنِ إِيك، وَمَعَ الكَارْدِينالِ كاجِيْتَان. ثُمَّ ذَهَبَ وَأَقْحَمَ نَفْسَهُ فِي المِتاعِبِ مَعَ البَابَا، وَأخِيرًا بَلَغَ الأَمْرُ ذُرُوتَهُ حِينَ دُعِيَ لِلْمَثُولِ أَمَامَ البِرْلَمَانِ الرُّومانيِّ، كَيْ يُحاكَمَ؛ وَطَلِبَ مِنْهُ التَّرَاجُعُ عَن كِتَابَاتِهِ.

وقَدْ وَقَفَ يُحاكَمُ لا أَمَامَ السُّلْطَاتِ الكَنِيسِيَّةِ فَحَسَبَ، بَلْ أَيْضًا أَمَامَ السُّلْطَاتِ العِلْمَانِيَّةِ. وَمُنِحَ جِوازَ المَرُورِ بِأَمَانٍ لِيَصِلَ إِلَى هَذِهِ المِحاكَمَةِ الهَامَّةِ؛ وَقَبْلَ وُصُولِهِ إِلَى هُنَاكَ، سَأَلُوهُ، كالمُعْتادِ: "حَسَنًا ماذَا سَتَقُولُ حِينَ تَصِلُ إِلَى البِرْلَمَانِ؟" فَأجابَ: "فِي السَّابِقِ، اعتَدْتُ التَّحَدُّثَ عَنِ البَابَا بِإِعتِبَارِهِ مُمَثِّلًا عَنِ المَسِيحِ، لَكِنِ الآنَ سَأَقُولُ إِنَّ البَابَا هُوَ عَدُوُّ المَسِيحِ، وَمُمَثِّلُ الشَّيْطَانِ". كانَ هَذَا هُوَ نَوْعُ التَّصْرِيحاتِ الَّتِي كانَ يُذَلِّي بِها، لا تَمُتُ لِلبَّاقَةِ وَالدِّبْلُوماسِيَّةِ بِصِلَةٍ.

## البِرْلَمَانُ الرُّومانيُّ:

كانَ العَالَمُ يُشاهِدُ الإِعدادَ لِلبِرْلَمَانِ الرُّومانيِّ، وَدَخَلَ لوثرٌ إِلَى القاعَةِ. رَبِّمًا تُصَوِّرُ لَكَ هُوَ لِيُؤوِدَ المَشْهَدَ كالتَّالِيِ: دَخَلَ لوثرٌ إِلَى قاعَةِ المِحاكَمَةِ، وَوَقَفَ هُنَاكَ بِمُفْرَدِهِ، مِحورًا لِلاهِتِمَامِ، بَيْنَمَا حَدَقَ مَنْ فِي الشَّرْفَةِ، وَالْحُشُودُ،

وقادة الكنيسة، وأمرأة الدولة فيه من مقاعدهم الشامخة. فوقف المحقق وقرأ لائحة الاتهامات وأشار إلى الكُتُب المَوجودَة على الطاولة بجوار لوثر، ثم قال: "مارتن لوثر، هل ستراجع عن هذه الكتابات؟"

والتيك النسخة الهولندية: نظر لوثر إلى فوق إلى الشرفة، ورأى ممثلي الأمبراطور والإمبراطورية الرومانية، ورأى أمرأة ألمانيا، والأساقفة وممثلي الإدارة البابوية في روما، وأجاب: "ما لم تُعني الكلمة المقدسة، أو المنطق الواضح، فإنني لن أراجع! فإن ضميري أسير كلمة الله، والسُّلوك في مخالفة للضمير ليس صائبًا أو أمينًا. هنا أفف. وليعني الله، وليس بيدي شيء آخر!" وهكذا، بدأ الإصلاح. لم يحدث الأمر هكذا.

ففي تلك اللحظة من تاريخ الكنيسة، حين سئل مارتن لوثر هذا السؤال: "مارتن لوثر، هل ستراجع؟" أتعلمون بم أجاب؟ أجاب السؤال، ولم يتمكن أحد في القاعة من سماع رده. فقالوا: "ماذا قال؟ ماذا قال؟ تكلم يا لوثر. ماذا قلت؟ هل ستراجع عن هذه الكتابات؟"

فنظر إلى السلطات، وقال: "هل يمكن السماح لي بأربع وعشرين ساعة لأعيد التفكير في الأمر؟" لم يكن يعلم إن كان على حق أم لا. وقد منح هذا الوقت الإضافي، فانسحب إلى قلايته للصلاة والتأمل، وكتب صلاة في تلك الليلة، بقيت إلى يومنا هذا. وأود أن أقرأ لكم مقطعًا من هذه الصلاة كي تدركوا معنى ألم النفس الذي قاساه مارتن لوثر في الليلة السابقة للحكم النهائي.

**هنا أفف:**

بالنسبة للوثر، كان هذا جشيماني خاص. وصلّى هكذا:

"أيها الإله القدير السرمدي، كم أن هذا العالم مخيف. انظر كيف يفتح فمه لابتلاعي. وانظر ضالة إيماني بك. ما أضعف الجسد وما أقوى الشيطان. إن كنت سأكل على أية قوة في هذا العالم، فسيتتهي كل شيء. فقد دق ناقوس، وصدَرَ الحكم. أيها الإله، يا إلهي، أعني ضد حكمه هذا العالم. أتصرع إليك. افعل هذا بقوتك القديرة. لأن العمل ليس لي بل لك. ليس لي شأن هنا. ليس لي شيء أكافح لأجله مع عظماء العالم هؤلاء. كنت أتمنى أن أفضي أيامي في سعادة وسلام، لكن القضية تحضك، وهي عادلة وأبدية، أيها السيد. أعني أيها الإله الأمين والثابت. لست أتكى على بشر. فهذا باطل. فكل ما في الإنسان مترعزع. وكل ما يخرج منه يُخذل. يا إلهي، يا إلهي، ألا تسمع؟ يا إلهي، ألم تعد حيًا؟ لا، لا يمكن أن تموت، أنت فقط

محتجِبٌ. قدِ اخْتَرْتَنِي لهذا العَمَلِ، أَعْلَمُ هذا. ولهذا، يا إلهي، تَمِّمْ مَشِيئَتَكَ ولا تَتْرُكْنِي، لأجلِ ابْنِكَ المَحْبُوبِ، يَسُوعَ المَسِيحِ، شَفِيعِي، وَثَرَسِي، وَحِصْنِي".

وهكذا اسْتَمَرَّتِ الصَّلَاةُ.

وفي الغدِ، حينَ عادَ لُوثرٌ إلى قاعةِ البِرْلَمَانِ، وطَرَحَ عليه المَحَقِّقُ مرَّةً ثَانِيَةً هذا السُّؤالَ: "يا أُخِ مارتِن، هل ستترجَعُ الآنَ عن هذه التعاليمِ؟" تردَّدَ لُوثرٌ أيضًا للحظة، ثُمَّ قالَ: "ما لَمْ تُفْعِنِي الكَلِمَةُ المُقَدَّسَةُ أو المَنْطِقُ الواضِحُ، فَإِنِّي لَنْ أترجَعُ. فَإِنَّ ضميري أُسِيرُ كَلِمَةَ اللهِ، وَإِنَّ السُّلُوكَ فِي مُخالِفَةِ اللِّصْمِيرِ لَيْسَ صائِبًا أو آمِنًا. هُنَا أَقِفْ. وَلِيعْنِي اللهُ، وَلَيْسَ بِيَدِي شَيْءٌ آخَرُ!"

جُنُونٌ عَظَمَةٌ؟ وَهُمُ عَظَمَةٌ؟ رُبَّما.

### الانشغال الزائد عن الحد بالهفوات:

أمرٌ آخَرُ. وهو ذلك الجانبُ من حياة لُوثر الذي يجعلُ النَّاسَ يظنُّونَ حقًّا أَنَّهُ كانَ مُخْتَلًا. يَعودُ هذا إلى فَتْرَةِ الديرِ. فقدَ كانَ دَوْرُ كُلِّ قَسٍّ حديثٍ في الديرِ هو أن يَتَّبِعَ نظامَ الديرِ وقواعدهُ، ويعترفَ يَوْمِيًّا بِخطاياهِ إلى أبِ اعترافِهِ. وَكَمَسْأَلَةٍ روتينيَّةٍ، كانَ الإخوةُ الآخرونَ يَدْخُلونَ كابينَةَ الاعترافِ، ويقولونَ: "يا أباي، قد أخطأتُ، واسْمَعِ اعترافي". فيجيبُهُ الأبُّ: "حسنًا ماذا فعلتَ؟" في الليلةِ الماضيةِ بعدَ انطفاءِ الأنوارِ، أشعلتُ شمعةً، وقرأتُ ثلاثةَ مزاميرٍ إضافيَّةٍ، وكانَ ينبغي ألا أفعلَ هذا. أو "بالأمسِ اشتَهيتُ قطعةً من دجاجةِ الأخِ هنري في قاعةِ الطَّعامِ". فماذا قد تكونُ المتاعِبُ التي قد تتورطُ فيها في الديرِ؟

كانَ هؤلاء يعترفونَ، فيقولُ أبُ الاعترافِ: "ردِّدْ مديحَ السلامِ لكِ يا مريمَ كثيرًا، وقُمْ ببعضِ الأعمالِ التَّكْفِيرِيَّةِ". ثُمَّ يُرْسِلُهُم إلى أعمالِهِم الرُّهبانيَّةِ.

لكن حينَ كانَ لُوثرٌ يَدْخُلُ للاعترافِ، كانَ يقولُ: "يا أباي اغفِرْ لي لأبِّي أخطأتُ. لَمْ أَعْتَرِفْ مُنذُ أربعٍ وعشرينَ ساعةً"، وكانَ يَبْدَأُ في سردِ الخطايا التي اقترَفَها في اليَوْمِ الماضي. لَمْ يَكُنِ الأمرُ يَسْتَعْرِقُ حَمَسَ أو عَشْرَ دَقائِقَ، ولا نِصْفَ ساعةٍ أو ساعةً، بلْ يَوْمًا بَعْدَ الآخَرِ، كانَ لُوثرٌ يَفْضِي في الاعترافِ بِخطايا اليَوْمِ الماضي ساعتينَ أو ثلاثَ، أو أربعَ ساعاتٍ؛ حتَّى أنَّ هذا كانَ يُصِيبُ رُؤساءَهُ في الديرِ بِالجُنُونِ.

وكانوا يتذمرونَ قائلينَ: "يا أُخِ مارتِن، توقَّفْ عن هذا الانشغالِ الزائدِ عن الحدِّ بالهفواتِ. إنَّ أَرَدتِ الاعترافَ بشيءٍ، فليكنْ خطيئةً حقيقيَّةً". لكن كُلُّ ما كانَ لُوثرٌ يَرْتَكِبُهُ هُوَ تِلْكَ الأشياءُ البسيطةُ. حتَّى بدأوا يَشْعُرُونَ أَنَّهُ



يَتَهَرَّبُ مِنْ أَعْمَالِهِ. فَقَالُوا لَهُ: "مَا حَطُّبُكَ؟ أَتُحِبُّ قِضَاءَ الْوَقْتِ فِي الْاعْتِرَافِ؟ أَلَا تُحِبُّ الْقِيَامَ بِمَهَامِكَ كَقَسِّ؟" لَكِنْ كَانَ أَبُو اعْتِرَافِهِ يُدْرِكُ أَنْ لَوْثَرَ كَانَ صَادِقًا.

شَرِيعَةُ اللَّهِ الْمُقَدَّسَةُ:

وَقَدْ كَشَفَ لَوْثَرَ لِاحْتِجَافًا أَنَّهُ كَانَ يَخْرُجُ مِنْ جَلْسَةِ الْاعْتِرَافِ بَعْدَ ثَلَاثِ أَوْ أَرْبَعِ سَاعَاتٍ مِنَ الْمَارِاثُونَ، وَيَسْمَعُ كَلِمَاتِ النَّفْسِ قَائِلًا: "مَغْفُورَةٌ لَكَ حَطَايَاكَ"، فَيَشْعُرُ بِالرَّاحَةِ وَالْفَرَحِ وَهُوَ عَائِدٌ إِلَى غُرْفَتِهِ، إِلَى أَنْ يَتَذَكَّرَ فَجَاءَهُ خَطِيئَةٌ نَسِيَ الْاعْتِرَافَ بِهَا. وَفِي الْحَالِ يَتَبَدَّدُ كُلُّ الْفَرَحِ وَالسَّلَامِ.

هَذَا حَقًّا جُنُونٌ، إِنْ عَرَفْنَا مِنْ عِلْمِ النَّفْسِ الْحَدِيثِ أَنَّ لَدَى الْإِنْسَانِ حِيَلًا دِفَاعِيَّةً طَبِيعِيَّةً وَدَاخِلِيَّةً يُدَافِعُ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ ضِدَّ شُعُورِهِ بِالذَّنْبِ. فَإِنَّمَا بَارِعُونَ جِدًّا كَتَبَشْرٍ فِي إِنْكَارِ الذَّنْبِ وَتَبْرِيرِهِ. يُقَالُ أحيانًا إِنَّ هُنَاكَ حَطًّا رَفِيعًا يَفْصِلُ بَيْنَ الْجُنُونِ وَالْعَبْرِيَّةِ، وَيَعْبُرُ الْعَبَاقِرَةَ أحيانًا هَذَا الْخَطَّ جِيئَةً وَذَهَابًا. وَأَظُنُّ أَنَّ هَذَا هُوَ مَا حَدَّثَ مَعَ لَوْثَرَ.

لَأَنَّ الشَّيْءَ الَّذِي أَغْفَلَهُ عُلَمَاءُ النَّفْسِ بِشَأْنِ هَذَا الرَّجُلِ هُوَ أَنَّهُ قَبْلَ أَنْ يَدْرُسَ عِلْمَ اللَّاهُوتِ، بَرَعَ بِالْفِعْلِ كَدَارِسٍ لِلْقَانُونِ. وَقَدْ أَخَذَ ذَلِكَ الْعَقْلَ الْقَانُونِيَّ الْمُدْرَبَ الْمُحَنِّكَ، وَطَبَّقَهُ عَلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ وَمُتَطَلِّبَاتِهَا - أَيُّ مُتَطَلِّبَاتِ الْكَمَالِ - وَحَلَّلَ نَفْسَهُ فِي ضَوْءِ شَرِيعَةِ اللَّهِ الْمُقَدَّسَةِ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ احْتِمَالَ النَّتَائِجِ.

وَوَظَلَّ يَقِيمُ نَفْسِهِ لَا بِمُقَارَنَتِهَا بِالْبَشَرِ الْآخَرِينَ بَلْ بِالنَّظَرِ إِلَى مِقْيَاسِ طَبِيعَةِ اللَّهِ، وَبِرَّهِ. وَحِينَ رَأَى نَفْسَهُ بِهَذِهِ الْبِشَاعَةِ مُقَارَنَةً بِبِرِّ اللَّهِ، ابْتَدَأَ يَبْغِضُ آيَةَ فِكْرَةٍ عَنْ بِرِّ اللَّهِ.

بِالْإِيمَانِ وَخَدَهُ:

ثُمَّ فِي إِحْدَى اللَّيَالِي، كَانَ يُعَدُّ مُحَاضِرَاتِهِ بِصِفَتِهِ أَسْتَاذًا لِلَّاهُوتِ كَيْ يُعَلِّمَ فِي جَامِعَةٍ وَيَتَنَبَّجُ عَنْ عَقَائِدِ الرَّسُولِ بُولَسَ فِي رِسَالَةِ رُومِيَّةٍ وَتَعَالِيمِهِ. وَبَيْنَمَا كَانَ لَوْثَرَ يَقْرَأُ الْأَصْحَاحَ الْأَوَّلَ، وَالتَّفَاسِيرَ، وَنَصًّا كَتَبَهُ الْقَدِيسُ أَعُسْطِينِيُوسُ مُنْذُ بَضْعَةِ قُرُونٍ، قَرَأَ فِي الْأَصْحَاحِ الْأَوَّلِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ: "إِنَّ بِرَّ اللَّهِ مُعْلَنٌ بِإِيمَانٍ. أَمَّا الْبَارُّ فَبِالْإِيمَانِ يَحْيَا" (رُومِيَّةٌ ١: ١٧). وَفَجْأَةً، أَضَاءَتْ الْفِكْرَةُ فِي عَقْلِهِ، بِأَنَّ هَذَا النَّصَّ فِي رِسَالَةِ رُومِيَّةٍ يَعْلَمُ عَنْ بِرِّ اللَّهِ - لَا بِرِّ اللَّهِ كَطَبِيعَةِ اللَّهِ نَفْسِهِ، بَلْ بِرِّ اللَّهِ الَّذِي يُقَدِّمُهُ لَكَ وَلي بِالنَّعْمَةِ، مَجَانًا لِكُلِّ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْمَسِيحِ. كُلِّ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْمَسِيحِ يَرْتَدِّي سِتْرَ بِرِّ الْمَسِيحِ وَرِدَاءَهُ.

وَقَالَ لَوْثَرَ: "اخْتَرَقَ هَذَا ذِهْنِي، وَأَدْرَكْتُ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى أَنَّ أَسَاسَ تَبْرِيرِي، أَيُّ مَوْقِفِي أَمَامَ اللَّهِ، لَيْسَ هُوَ بِرِّي الشَّخْصِيَّ الْأَعْزَلِ، الَّذِي دَائِمًا مَا يُخْفِقُ أَمَامَ مُتَطَلِّبَاتِ اللَّهِ، بَلْ بِرُّ الرَّبِّ يَسُوعَ الْمَسِيحِ وَخَدَهُ، الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ



أَتَمَسَكَ بِهِ بِإِيمَانٍ وَاثِقٍ". وَقَالَ: "حِينَ فَهِمْتُ هَذَا، لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي حَيَاتِي فَهِمْتُ الْإِنْجِيلَ، وَرَأَيْتُ أَبْوَابَ الْفِرْدَوْسِ تُفْتَحُ عَلَى مِصْرَاعَيْهَا، فَدَخَلْتُ".

بدا وكأن لوثر يقول للعالم، من ذلك اليوم فصاعداً، وللباباوات والمستشارين، ولأعضاء البرلمان والملوك: "البار بالإيمان يخيا؛ التبيري بالإيمان وحده. فإن كان "الله قدوس، وأنا لست كذلك" هو الأساس الذي عليه تثبت الكنيسة أو تسقط، فلا مجال للتفاوض في هذا لأن هذا هو الإنجيل".

هل هذا جنون؟ أيها السادة، إن كان هذا هو الجنون، أصلي أن يرسل الله جيشاً من المختلين كهذا الرجل إلى هذا العالم حتى لا يحجب الإنجيل، وحتى نفهم أننا نحن الأئمة نتبرر أمام إله قدوس من خلال حقيقة أن الله، في قداسته، ودون التفاوض فيها، قد قدم لنا قداسة ابنه لئلا نخطئ، لكيلا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية (يوحنا ٣: ١٦).

هَذَا هُوَ الْإِنْجِيلُ الَّذِي لِأَجْلِهِ كَانَ لُوْثَرُ مُسْتَعِدًّا لِلْمَوْتِ.

دَعُونَا نُصَلِّي.

يا أبانا نشكرك لأجل شهادة هذا الرجل المختل، ولأنه أدرك حاجتنا الماسة إلى بر ليس منا كي ينشر افتقارنا إلى البر. يا أبانا، نشكرك لأنك لم تتركنا معلقين فوق فوهة الجحيم مثل لوثر، ولم تدفعنا إلى حافة اليأس قبل أن نتمكن من رؤية جمال المسيح ومجده. لكن إن كان هذا هو ما يتطلبه الأمر كي يقبل هذه الرسالة كل من يسمعه، فإنني أصلي، يا إلهي، أن يرسل حاصد الأزواج إلى ضمير كل من يرفض تلك النعمة، إلى أن يصير مستعداً مثل لوثر أن يظفر فرحاً، حين يفهم أن بره يكمن في المسيح وحده. آمين.

الدكتور أ. سي. سبول هو مؤسس هيئة خدمات ليجونير، وكان أحد رعاة كنيسة القديس أندرو (St. Andrews Chapel) في مدينة سانفورد بولاية فلوريدا، كما كان أول رئيس لكلية الكتاب المقدس للإصلاح (Reformation Bible College). وهو ألف أكثر من مائة كتاب، بما في ذلك "كلنا لاهوتيون" (Everyone's A Theologian).

تم نشر هذه المحاضرة في الأصل في موقع [ليجونير](http://www.ligonier.org).